دُرَّةٌ فَاخِرَةٌ
تأليف:
الدكتورة عائشة عبد القادر السيد

كِتاب درّةٌ فاخرةٌ

تأليف: د.عائشة السيد

Fatouh

د. عائشة السيد ـــــــ

الإهداء

إلى تلك المحّارة، النّفيسة، من احتملت ضدّاً غريباً، أربك نسيجها الهشّ، فلم تخرجه منها، بل كانت أكثر ذكاءً في جعله سبباً لتكوين جمانها، فأفرزت عرق اللّؤلؤ لتدافع به عن ذاتها، وتكسي ذاك المُهيّج بغطاءٍ يجمّلها، وتكمل حياتها تلبسه أغطيةً فوق أغطيةً حتّى يصبح من احتلّها، رمزاً لعظم ثمنها، وتخرج به بدرّةٍ فاخرةٍ، يلتمّ العالم أجمع يرى نفاستها، ويتمنّى لو يطالها، لكنّهم يتعلّمون أنّها صعبة المنال، وقربهم منها يكلّفهم الكثير، فأنا إلى تلك المحّارة، وإلى تلك الدّرّة النّفيسة أهدي كتابي، وهل محارةٌ سوى روحي تُذكر؟!

هل درّةٌ نفيسةٌ سوى أحلامي تُذكر؟!

المقدّمة

كانت وتكون وستظلّ لؤلؤةً، قويّةً وصلبةًوأثمن ما أخرجته الحجار الكريمة العضويّة، تنهلّ التّحديّات عليها كسوابقٍ تتسابقُ في استثمار جمالها الفكري، وتزويد منطقها العميق، وترويض الثّقافة والتّاريخ في أزقّة مفترقات الحياة معها، فكما كان للنّاس عشقٌ تاريخيٌّ للّؤلؤ كان للكون أسطورة عشق سرمديّةٍ معها، وذاك لأنها جوهرةٌ فريدةٌ لا تُشبه إلّاها، تخرج من محّارتها، من باطن أعماق الجروح بها، لا من باطن الأرض، لدموع تلك اللّؤلؤة أسطورة جمالٍ عُرفت منذ القدم بدموع الآلهة لشدّة جمالها، وهل حقّاً الدّموع تبدع في رسم عينيك بريشةٍ فاقت حدود ريشة ليوناردو دافنشي؟!

تلك الدّرّة ستروي في هذا الكتاب كيف يكون الجُمان رمز الطّموح العال، الرّقّة المُلفتة، الأناقة البارزة، النّعومة المتألقة، فأتمنّى أن نبحر معاً في بحر اللّآلئ، نُسعد بهذا الجمال وقوّته وندرته!

دُرّةُ ربيعها

تشرقُ الشّمس من قزحيّتها البنيّة، وتنثر جفونها للعالم أنوار الكون السّاطعة، لتخيط من آمال اليوم أميالاً تعيش عليها أجيال الغدّ، تنير ظلام الأمس في ذاكرة الحاضر القاتمة، وتمحو غبار الماض المُتعفّن، وتنير طرق المستقبل المجهولة. ربيعٌ هو قلبها الرّاقص على آهات الحياة، من اعتاد عزف ألحان السّعادة من دموع الحزن القاتلة!

تحملُ الرّبيع في قلبها، ولا يجرؤ فصلٌ واحدٌ مكوّنٌ من ثلاثة أشهرٍ أن يدخل بمواجهةٍ معها، فما الرّبيع إلّا حياة أحلامها، وما حياة لأحلامها إلّا الرّبيع!

أعلمُ أنّك يا عزيزي القارئ تحبّ
فصل الرّبيع كحبّ الطّبيعة للورود،
لكن ماذا عن ربيع داخلك؟!
أما آن له أن يُزهر؟!
أما مللت سنين الجفاف
الهادمة؟!
أما سئمت سنين العجاف الطّوال؟!
ربّما تخاف أن تعترف بذلك، أو
تخشى أن تواجه نفسك به، ترعبك
سنينك ما تمرّ بسوداويّةٍ، لكن إلى
متى يا صديقي؟!

وهل في العمر مُتّسعٌ لأعوامٍ تهدر تحت طوابق الظّلام الخانقة للأنفاس؟!

هيّا، هيّا، قف معي مستقيم الظّهر، آخذاً شهيقاً عميقاً، زافراً براحةٍ آمنةٍ، وتأمّل بحبّ جمال الطّبيعة من حولك، الشّمس دافئة كدفء الحُبّ بقلب فتاة حالمة كدرّة الرّبيع، السّماء صافية كنقاء روح الدّرّة، الجوّ رائعٌ وكلّ ما به يناديك للحياة، فهل ترفض نداء الحياة كي تميت الحياة متذرّعاً دور الضّحيّة؟!

أنسيت أنّني أخبرتك في كتابي"قصر الرّماد"أنّ الحياة لا ترحم الضّحايا؟!

لا تكن ساذجاً بحقّ العيش، واستشعر عظمة الخالق في أنفاسك، تأمّل وتأمّل وتأمّل حتّى ترى الجمال ما شوّشت على صورته متاعب الحياة، كن حرًاً في دنيتك، ولا تنتظر شيئاً، فكما نعلم أنّه يصبح حرّاً من لا ينتظر شيئاً، لكن الفاجعة إن كنت لا تنتظر شيئاً ورغم ذلك لستك بحرٍّ، فعندها حتماً هناك مشكلة يستوجب حلّها!

الرّبيع فرصُتها لتعيد رسم لوحة أحلامها بألوان الرٌبيع، بألوان الأمل، ألوان الحياة الورديّة، الحياة الهادئة، الآمنة، المُطمئنّة، فمن أخبرك أنّ جرعة الأمل الزائدة قد تكون قاتلة؟!

فهل يُتّهم من هو سببٌ للعيش في القتلِ؟!

من أخبرك أنّ الأمل وهمٌ؟!

ومن أقنعك أنّه أكبر خدعةً؟!

هل تتوقّع أنّ الماء الّذي تنتهي الحياة دونه يكون سمّاً لك؟!

هكذا هو الأمل تماماً، هو ماء قلبك، ماء عيشك، ولا عيش دونه، لذلك كن وإيّاه في تواصلٍ لا ينقطع، لتبقى ممّن يحيا الحياة بالحياة، لا بالموت!

درّة الرّبيع أنتِ يا ربيعي الدّائم، فخورةٌ أنا بأرواح الحياة بك، ممتنّةٌ أنا لنبضك الدّافئ، سعيدةٌ كونك أنا، ولو خُيّرت من أكون؛ لاخترتُكِ أنتِ، أنتِ يا درّتي ولا إنسانة سواكِ.

درّةٌ اختياري

نعم، أختارُكِ أنتِ، أن أكون أنتِ، كما أنتِ، أنت يا أنا، وأنا يا أنتِ، فتاةٌ أبدع الخالق بها، جعلها درّةً ثمينةً لا شبيه لها إلّاها، خُلقت من ماء الذّهب، لتظلّ أكبر لمعةً في هذه الدّنيّا، رُسمت بألوان الحُبّ، لتمنح الحبّ لكلّ ما تمرّه، على رأسها ريشة طائر الهويا، فإن وُضع العالم في كفّةٍ، وريشة رأسها في كفةٍ أخرى، لعَلَت كفّتها!

فتاة ولا أيّ فتاةٍ، متفرّدة، نادرة، ثمينة، لا أقران، لا أشباه، لا أمثال، هي فقط دوناً عن العالمين، تأتي مرّةً في العمر، وهل العمر يُكرّر؟!
وهي كالعمر تماماً، لا تُكرّر!
تبدعُ ترك شرارة درّتها دائماً في جلّ طرق عمرها، لذلك أثرها باقٍ، لا يمحه زمنٌ، ولا تبدّله ذكرياتٌ، ولا يحلّ محلّه شخصٌ آخرٌ، هي ما تتركه يظلّ فارغاً للأبد دونها!

ما تتركُه يُحفر به أثرها، وتُنقش عليه بصمتها، فلا دهور تنسيه، ولا أعوام تميته، بل ما تتركه حيّاً، خالداً، لا يموت! وهذه درّتها الثّمينة، القابعة في بصماتٍ كبصمات جوهرة مثلها، نفيسة، وغالية جدّاً، وتلك اللّؤلؤة تجيد رسم النّبض في قلوب من أحبّت، من استلطفت، من عاشرت، من ائتمنت، فيكون في قلوبهم نبضها لا نبضهم، فعندما تكون الدّرّة تنبض حياةً، تأبّى إلّا أن تترك نبضها في قلب من كانت يوماً في حياته، فلله درّ قلوبهم عندما يكون النّبض نبض الدّرّة!

فأنا من أختار إن لم أخترك؟!

من أكون إن لم أكن أنت؟!

ومن هي عائشة دون عائشة؟!

جميلٌ هو خيالي، حين أجدُني به أختار ذاتي، ذات الملامح، ذات الصّفات، ذات الدّرّة، ذات النّفيسة، ذات الجوهرة، ذات اللّؤلؤة، ذات الجُمان، ذات الدّانة، ذات الأنا، فأنا عشت عمري كلّه وما وجدت به أسمى من كون أنا، هي أنا!

فرسالتي لك أيّها القارئ، ابحث عن ذاتك، ابحث عنك، اكتشف من أنت، انظر إلى نفسك، وانظر إلى ما بك وما عندك، واسأل ذاتك هل تقبل أن تكون أنت إن خُيّرتَ من تكون؟!

إن أجبت بنعم، فأنا فخورة بك لأنّك تحبّ ذاتك وتحبّ أن تكون أنت مجدّداً، وإن أجبت بلا، فأنا عليّ أن أخبرك، أنّه لا يوجد ما يليق بك أكثر منك، لكن كلّ ما عليك أن تبحث عنك، فأنا متأكّدة أنّك ما زلت ضائعاً، تائهاً عنك، ولم تجدك بعد، لكن استمرّ في رحلة اكتشاف ذاتك، وابحث عن نقاط ضعفك وقوّها، وعزّز نقاط القوّة بك، وحينها ستكون أنت خيارك الأمثل، بل الوحيد أيضاً.

درّةٌ مشاعرها

ماذا تعرف أنت عن مشاعرك؟!
ماذا يخطر على بالك حين تسمع بكلمة مشاعر؟!
أتخبرني، بأنّها الفرح، الحزن، الشّوق، الأمل، الحنين، والكثير الكثير ممّا شابه، أليس كذلك؟!
نعم، هذا صحيح، لكنّها لبست فقط هكذا، بل المشاعر هي لغة روحك مع الأشياء البُكم، هي شيفرة قلبك مع الأشياء اللّامرئية

فهي صوتك حين يُقطع صوتك! وهي لغتك حينما تكون أبكماً، هي عيناك حين تكون ضريراً، وهي مسمعك عندما تكون أصمّاً، أي هي أنت بالوقت ما تكون أنت فيه لست بأنت! يا لها من معجزةٍ حياتيّةٍ أن تكون مشاعرك هي حضورك وأنت غائباً! تعمّق بما تقرأه وستفهم أيّ كنزٍ ثمينٍ تمتلكه داخلك، أيّ عزيزٍ، غالٍ مرتبطٌ بك، لا ينفصل عنك، فإيّاك أن ترميه هكذا!

وماذا عن درّتي؟!

وكيف ستكون مشاعر الدُّرّة؟!

مشاعرُها، يا لها من أشعارٍ تُهدى لمطلعٍ أدبيٍّ ثقيلٍ من نوعه!

هي اعتادت أن تكتشف كينونة مشاعرها مذ رحلتها الأولى، أي اختارت أن تحمل تذكرة سيناريو حياتها بقلبها، بروحها، بعينيها المُتطلّعة إلى الغد، فعاشت عمرها وهي ترقص على تناغمها مع كونها بتواترٍ هادئٍ تارةً، وعاصفٍ تارةً أخرى، فهي وشعورها أشبه بكرة نارٍ، تحرق وتنير، وتدفّئ، وتقي، وتُنقذ، وتميت

فهي احياناً القاتلة، وأحياناً المنقذة، ولا يتعارض هذا مع سرّ الشّعور، فهما كانت هي وكنت أنت حذراً سيأتي يوماً ويُخطئ شعورك، فلا تحزن، بل إيّاك أن تحزن، فكفّة الصّواب والخطأ لا يفترقا، كما أنّ عدالة السّماء لا تنسى عدالة الأرض، فهما مُحقّقان لا محالة، فهل ستحزن، أو تشكّ بعد الآن؟!

درّتي تشبه الغاردينيّا بحسّها، وشعورها، أنيقةٌ بهما، تنبض نقاءً، وفرحاً، وحبّاً عميقاً، وطرازاً عتيقاً، كلّها ثقة بذاتها، روابطها بهما عميقةٌ جدّاً كتفكيرها نحوهما، راقيّةٌ كثيراً، ورقيقةً بانتباهٍ مُلفتٍ

فهما كالغاردينيّا، يزيّنان حفلات
عمر تلك الفتاة من اعتادت جعل
معاركها حفلات موسيقيّة،
ترقص وتغنّي وتعزف على
ألحانهنّ موقنةً كون الرّقص
أداتها الأولى لتدريب مشاعرها
على التّعريف عن ذاتها، ومهما
تكلّمت في درّة شعورها
وحسّها ما أعطيت حقّ التّفرّد
الحيّ بهما حقّه، فيا لهنّ معاً
لوحةً تفوق تفاصيل الخيال!

درّةٌ ذاتها

إن تجوّلت من الشّرق إلى الغرب، وسافرت بين السّماء والأرض، وجلت في هذا الكون شتّى أرجائه، وزرت العجائب السّبع، ورأيت متاحف السّياحة عينها، لم ولن تخوض رحلةً، أبهى وأسمى من رحلة بحثك عن ذاتك!هذه الرّحلة ما يُهدى لها العمر، وتتلخّص لأجلها الدّنيّا، ويُختصر الجود بها، فهل خضتها؟!

هل بحثت يوماً عنك؟!

هل سألت نفسك من أنت؟!

ذاك السّؤال هو حضورك أنت، هو غيابك أنت، هو حياتك، وهو مماتك، فلا تضع دنيّتك دون وجده، والعيش في رحابه.

أمّا عن درّة ذاتها، فهو درٌّ!

فتاةٌ تفهم من تكون، تعرف ما تحبّ، ترى أين تمشي، تلمح الواقع بعينٍ تخطّط وتسعى، تعلم ما دورها في الحياة، تعرف لماذا تعيش، ولماذا أتت إلى هذا الكوكب، تدرك ما تريد أن تقدّمه للعالم، وما تكونه في حياتها، أتعلم أنّنا لا نُخلق نعرف ذاتنا، بل نحن نبحث عنها إن أردنا؟!

حتّى أنا ضعتُ يوماً، تهت سنيناً، بكيتُ أعواماً، تآلمت لسنينٍ مقبلةٍ كثيرةٍ، ضلّ طريقي، وتشتّت مشاعري، وخُذلت أحاسيسي، وسُرقت أحلامي، وبات العيش من حولي ظلماً باكفهرارٍ قاتمٍ، لكنّني أردتُ في ذلك الوقت أن أنقذ نفسي، وذلك تحقّق عندما بحثتُ عنّي، وبدأت أكتشف ذاتي، ألمس كياني، أسمع صوتي، أحسّ بشعوري، وأعيش مع إحساسي، وألفّ الكون القابع بي بحثاً عنّي

ماهيّتي، كياني، كينونتي، ذاتي، وكلّي.

ذاتي ذاك صار هو أقرب لي من حبل الوريد، صرتُ أنا أنا، وصارت أنا أنا، نعم، حينما عثرتُ على ذاتي، عثرتُ على أعظم أسرار الكون، بل أثمن عجائبه، وهل أروع من إنسانٍ وجد ذاته؟!

صدّقني عزيزي القارئ، ربّما أنت لا تحبّ ذاتك؛ كونك لم تجدها بعد، بل لم تبحث عنها قط، ابدأ في رحلةٍ مستنيرةٍ كهذه، وابحث عنك، لعلّك تجد ذاتك ربّما بين قطرات المطر، بنّ القهوة، ألحان الموسيقا

نسمةٍ باردةٍ بصيفٍ حارٍّ، شمسٍ دافئة في ليلةٍ شتويّةٍ، معطفٍ مُعلّق على حائط عميقٍ، بسمةٍ ضاحكةٍ على وجه طفلٍ يتيمٍ، صوت مولودٍ جديدٍ تنفّس الحياة لأوّل مرّةٍ، لقاء أمّ بابنها المحارب عقب سنواتٍ عديدةٍ، وكلّ ما يخطر على بالك ويحمل احتمالاً أن تجد نفسك به!

لا تتوقف عن البحث عنك، حيث تجدك، فالعمر مرّةٌ ولا يُحتمل أن تعيش به بظلّ ليس لك!

درّةُ سلامها

تقف شامخةً كالهدهد على جبل قاسيون، تطلّ على العالم، وتتحسّسُ نبضها، ترفع رأسها إلى السّماء، تغمض عينيها، وتآخذُ نفس الحياة، فتجد نسمتها اللّطيفة تحطّ على وجهها الملائكي، تُطاير شعرها الخرنوبي، تتخلّلُ خصلاته وتديرها حول عنقها، لتصعد بروحها إلى غيمة الأمان، حيث تهدأ وتستكنُّ، وترفع بقلبها إلى نجم الحبّ، فتتغذّى شرايينه وأوردته حبّاً، سلاماً، وراحةً، وتحلّق بجسدها أجمع إلى مجرّة السّلام

حيث تخمد نيران الحروب، وتموت شِجَارات الحياة، وينطفئ عراك الكون، وينقضي خصام البشر، وينتهي نزاع العقول، وتصمت تناقضات الأصوات، وفقط يحلّ السّلام، فتجدُ نفسها أخيراً في مآمن السّلام، في رعايته، في جوفه، بحضنٍ آمنٍ تاهت طرقها كثيراً وهي تبحث عنه، ونست لبرهةٍ أنّه قائمٌ وسط ضلوعها، بين صدرها وشغافها، وسط دمها وبشرايينها، وهل يخفى الأمان عنكِ يا أمّه؟!

ارتعش جسدها لقوّة الشّعور، وبدأت أناملها حركةً بلهوانيّةً بالهواء تكتب وتقول: ذات صباحٍ لا يشبه غيره من صباحاتٍ أخرى، قبل آلاف السّنين، وجدت نفسها طفلةً تركضُ بين الحقول، ثمّ تطيرُ وتحلّقُ بعيداً بعيداً، فتصل إلى جبل قاسيون، وتبدأ نداءها الأبديّ، فيملأ صوتها النّديّ صدى الدّنيّا، وتغنّي للكون نوتات الإبداع، وتعزف ألحان الأمل

وترسم درع القوّة، وبجانبه تاج
النّجاح، وتلوّن بألوان الأمل، وتزيّنها
بفراشات الحُبّ، حيث تكون أمّاً
لنجاحاتٍ كثر، ولإنجازاتٍ عظيمةٍ،
ولسِيَرٍ عميقةٍ، ولقصصٍ أسطوريّةٍ،
ولتاريخٍ خالدٍ، لا يمحه زمنٌ أو عصرٌ،
وتابعت هكذا تكتبُ وتكتبُ حتّى
سال دمعها، وصل إلى شفتيها،
مُزج بلعابها، فازدقت ريقها، وجدت
بملوحته حلاوةً ما تذوّقتها زمناً،
وحينها أيقنت أنّ دمعها عجز عن
كتم انبهاره بها، فهل هي حقّاً
فتاةً واحدةً أم مجرّةً بأكملها؟!

وأنت أيّها القارئ يا من أمضيت عمرك تبحث عن السّلام، أما آن لك أن تجده؟!

انفض عنك غبار الطّرق الموصدة ما لا توصلك إليه، وامض بطريقٍ منيرٍ يتلآلآ بنهايته بالسّلام، وصل وعانقه، وعش في كنفه حتّى يمضي العمر بك بسلامٍ ومن سلامٍ وإلى سلامٍ.

وبعد أن أنهيت الدّرر الخمسة متحدّثةً عن الدّرة الفاخرة ودررها ببعض ما تعيشه، وأسقطت لكم درراً منكم أيضاً، سأتحدّثُ الآن بشكلٍ مُبسّطٍ عن حقائقٍ من الحياة ومنكم، تستحقّ أن تكون كالدّرر، فهيّا لنستمتع معاً!

كلّ الأشياء الحقيقيّة في الحياة تحدثُ لمرّةٍ واحدةٍ فقط، كالولادة، والموت، بل الحتميّة، وما بهذه الحياة عدوٌّ سامٌّ كالوهم، فتخيّل أن تحيا بوهمٍ، تعيشُ بوهمٍ، ترى بوهمٍ، تشعر بوهمٍ، وتبني بوهمٍ، ماذا عساك تفعل في النّهاية؟!

ما هو شعورك حين ينخر ندم الوهم عظامك؟!

أشعرت بثقل الكلمة على شعورك؟!

أرأيت كم تستنزفك الفكرة؟!

لماذا إذاً ما زلت تعيش على أعتاب الوهم؟! لماذا تحشرجُ آهاتك لللاشيء؟! لماذا تصرخ غضباً وتُحرق ككلّ ما فتن قابيل، وقتل هابيل؟!

اخرج يا عزيزي، اخرج من قوقعة الوهم بسهمٍ واضحٍ كوضوح عنوان الكتاب اللغوي الشهير "درّة الغوّاص في أوهام الخواص" للإمام أبي محمد القاسم الحريري البصري (صاحب المقامات)، فهو باختصارٍ ربط العلاقة بين الدّرة والوهم، فكانت علاقة "تقويم وتصحيح"

حيث تُمثل الدّرة اللغة العربية السليمة والنفيسة، بينما يُمثل الوهم الأخطاء اللغوية الشائعة التي يجب تنبيه العلماء والأدباء إليها وتصويبها، فأنت تحتاج هذا العنوان كي تصحّح حياة بأكملها قائمة على الوهم، وليس فقط مفردات!

أقف على جبل قاسيون، أعود بالوراء إلى زمنٍ كان الوهم يتولّى دقّات قلبي، فأجد الأنواء تعصف بي، تقترب الحرائق منّي، تلتهمني، تبكي العصافير، وتتراقص الأفاعي، وإذ برعشةٍ توقظني من سباتي

تقول لي:
ما الّذي يُعيدك إلى حفلة الأفاعي المُتراقصة؟!
أنسيتِ أنّ الأفاعي بكت حرقةً لانتهاء عزف شجن نايك؟!
أجيبها وأنا أطلُّ على دمشق من جبلها، لم أنس، ولن أنسى، لكنّني كنتُ أكتب عن الوهم، فبحثتُ بتراتيله الماضية، حيث كنت أنتظر انبلاج فجر، بينما الدّمّ غمر كلّ شيءٍ، لكن الآن أنا وصلتُ إلى نقطة النّهاية لمحطّة الوهم مذ زمنٍ كما وصلت اليمامة إلى كهفها، وأنت متى ستصل؟!

هل سبق لك وبحثت عن النّور، وأنت تغرق في عتمة الظّلام، أم أحببت الظّلام واعتدت عليه؟!

كانت الدّرّة الفاخرة، تمشي، تتبعها ورود الشّام، فعلى مفرق جوري، وفي زاوية ياسمين، أمّا في تلافيفها فالغاردينيا، إنّها سيّدة الحياة، والموت دونها، سيّدة الموت عشقاً، وسيّدة الحياة حرماناً! نعم هي التّناقض، ولأجل ذلك تبحث عن النّور في الظّلام، تركض خلفه، لجعله يبزغ في كلّ نواحي حياتها، وتراهن عليه الألم

فيتحوّل إلى حياةٍ ممتدّةٍ، فيصبح الظّلام أضحية لنورها، يغرق في نور عينيها ويغيب للأبد، ويتوه في فتونها حتّى يشيخ، أمّا عنها، فهي فاتنة كدمشق، ودمشق لا تشيخ، ونجمٌ لا يخبو!

تجلسُ على شرفة الغدّ، تنظر لغاردينيّتها، ودمشق تجلس إليها، تعدّ من قهوتها هال النّور، ومن عينيها بريق النّور، ومن ريقها حفاوة النّور، ومن بطن كفّها خطوطه، فترتشفُ النّور من اللّحم إلى العظم، وتنظر لك وتسألك متى دورك؟!

فإلى متى ستظلّ تائها عن النّور، حان الوقت يا صديقي، اذهب وارحل وابحث عن نورٍ يضفي على حياتك حياةً، يكسر قواعد الملل، ويحطّم تماثيل اليأس، ويروي عطش الحلم، ويحيي فيك ما أماته الزّمن، فهيّا انطلق فالرّحلة تستحقّ!

من كوّة النّور يقطرُ عسلُ الرّوح،
وشهد ما تبقّى في دنان نبيذ
الحياة، بحثاً عن مساحةٍ من وله، لم
يعرف الفتور، ولم يخرج من خلايا
الوجدان،
فاغمري العمر بالشّهد يا درّتي
الفاخرة المكوّنة من نورٍ وألقٍ،
أيّتها السّاكنة المسكونة بكلّ
القباب والمنارات والمزارات
المقدّسة، أكثر من قداسة
ساكنيها، تماهي دهراً ودهوراً،
فأنا لولاكِ ما وجدتُ النّور يوماً.

درّةٌ فاخرةٌ هي تحبّ المطر، كما يحبّ العالم دمشق، تُروى منها وكأنّها ماؤها الوحيد، تبحث عنها كمن يبحث عن ضالّته، تنتظرها كمن ينتظر سماع صوت حفاوة تقترب تُخرجه من سجنه وتطلقه للحياة، نعم هي فتاة المطر، بل هي حبيبة المطر، والمطر حبيبها.

وبسياق المطر، سأودعك سرّاً اعتنِ به جيّداً، حين تنتظر غيثاً فلا يصيبك، وتراه في أرضٍ أخرى فلا تبتئس، ولكن لا ترقب، ولا تترقّب، فبذاتك مطرك، منك يخرج، ولك يعود، لا تترقّب إلّا من ذاتك، وذاتك تكبر عندما تصبح ذرّة فيها!

أي إن لم تكن كلّ شيءٍ، لا تكن شيئاً، وإن قبلت، لا تسل عن تدحرجك على قارعة انشغالٍ، فاركب محيط الدّائرة، واهجر مركزها

المحيط يجعلك قارئاً، تدور نقطتك، والمركز تحت يديك، وداخل الدائرة لا يصل إلى المحيط، تشرّف بالمحيط، شرفة غدك من جيرون، من باب البريد، من كلّ أبواب دمشق، شرقيها وغربيها!

هل وصلك ما أعنيه؟!

هل أنت مُستعدٌّ لأختم كتابي هذا بحبّ الدّرّة للمطر؟!

حبيبة المطر يا أنا، يا أغلى ما أملك، يا ابنة الشّتاء، يا من تهواه، وتهيم بمطره، بل تحيا وتحيا بكلّ غيثٍ، فتاة تتجدّد مع كلّ شتاءٍ، تعود طفلة مع كلّ هطولٍ للمطر، تحيا بتفاصيل الشّتاء ولياليه الماطرة، تعشق كوب القهوة والسماء تمطر، والموسيقا تهدأ من حولها، وتيّارات كتابتها تندفع بها لتمسك قلمها وتخلّد أساطير الحبّ والعشق، تشعر بها خُلقت من روح الهطل، آه لو تسعفني حروفي وأصف علاقتها مع المطر كما تكون!

أيّتها الدّرّة الفاخرة يا من صنعتّها من رحمي، وكبرت بواقعٍ لا يشبه سوى السّدى، لكنّها أدركت أنّها استحالة أن تتكرّر، فكانت هي الدّرّة، اللّؤلؤة، الجمان، والمرجان، وكلّ غالٍ ونفيسٍ حُظي به هذا العالم.

فأنت تمتلكين من الطّاقة الأنثويّة ما يهدّ هذا الكوكب ويعيد بناءه على شفا خطوط طاقتك! بل تلك العجيبة في تحويل اللّاشيء إلى كلّ شيءٍ، فمن لامس اللّاشيء من الصّعب أن يفرحه سيلٌ من الأشياء، فنهاره يبدأ بالعتمة، وروحه تعتصر ما تبقى من ولهٍ حتّى لا يشهد على الموت، لكن أنت أنت يا درّة العمر، أيامك سرمديّةٍ بانهمارٍ، ومعدودة بالغياب، فأنت يا تعبثين بأصابعك الطّهريّة بموجودات الكون فتُنفخ فيها الحياة، من تغمريه بشلالاتك تصنعين له كهفاً، أنتِ أنتِ معجزة يوسف ودمشق!

الخاتمة

لستُ سعيدةً وأنا أختم معك يا عزيزي كتابي هذا، فأنا حقّاً كنتُ أكتبه لك وكلّي إلهامٌ، فعساه وصل إلى قلبك، لامس شغافك، وهدّأ نبضك، أمّا الآن فرسالتي لك، ولي، هي المحافظة على تلك اللؤلؤة ما خُلقت بك وأنت ربّما عجزت عن اكتشافها، لكن أنا وجدتها، وأعدها أن أحافظ عليها، أبقي درّتي الفاخرة لوحدها، في مآمنٍ وأمانٍ، لا يمسّها حجرٌ كريمٌ آخر، أو معدن نفيس إلّاها، فهي ثمرة عمري، وما أحيا لأحيا بها، تلك هي حريري، هي أناقتي، وكلّ مباهجي، وأتمنى منك أيضاً أن تمزّق كلّ الشّرانق لتغدو حريراً، عندما تضيق ذرعاً بذاتك، وتمتّع به قبل أن ينهيك، فالحرير ناعمٌ، لذلك لا يُقتل ولا يُرى، فخلاصة كلامي أن تنزرع في الحلم، وإيّاك أن تغادر كهفه!

أحملُ يقيني في جوهر دهشتي المُنهمرة، وما من يقينٍ إلّا وأدهشني، وما يُدهشني سوى ما انهمر بي، ولا انهمار إلّا الجوهرة، الدّرّة الفاخرة.

انتهى والحمد للّه

كتاب الدُرَةِ الفاخرة للدَّكتورة الكاتبة عائشة عبد القَادر السَـيّد،
كَتبت به عن تلك الدُرَة الثمينة ما كانت تقصد بها ذاتها،
وأسدَلت عَليَنَا بعَض من درَرها، وَكأنَّ ما تَحمله بها نبعٌ
روتَنا من بعَض شلالاته،
فاخَتارت خمسة درَر غالية وتكلَّمتَ بها، ثمُ ناقشت القارئ
بموضوعين هامَّين وهمَا الوهم والنّور،
ثمُ ختمت كتابها بحَبّها للمطر، متغنيّةً بطاقتها
معَ بعَض النّصائح لنا.